الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم
دراسة في المكانة والتمكين

د. مُحَمَّد بن عامر بن سعد الصويغ(١)

الملخص

موضوع البحث: يتناول البحث الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم، ويسلط النظر على محورين: المكانة والتمكين، فالمكانة من خلال استعراض آراء العلماء فيه ومنزلته بين أوجه الإعجاز الأخرى، وأما التمكين فمن خلال طرق الإفادة منه على مستويات الكلام المتعددة وتوظيفه على وجه حسن ملائم للسياق .

أهداف البحث: يهدف البحث إلى إبراز مكانة الإعجاز التأثيري بين أوجه الإعجاز الأخرى للقرآن الكريم، كما يهدف أيضا إلى تجلية مكانة هذا النوع من الإعجاز، وكذلك طرق الإفادة منه وتمكينه في اللغة الاستعمالية وحسن توظيفه.

أهم النتائج: أن الإعجاز التأثيري له مكانة عالية بين أوجه الإعجاز الأخرى، وأن العلماء المتقدمين والمتأخرين قد نوّه أغلبهم بمكانته، وأن هذا اللون من الإعجاز يمتاز عن غيره من أوجه الإعجاز الأخرى بتنوع وسائل الإفادة منه وتوظيفه في الكلام كتابة ومشافهة.

(١) أستاذ الأدب والنقد المشارك بقسم اللغة العربية، بجامعة الأمير سطام بالمملكة العربية السعودية.
حصل على الماجستير من كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وكانت أطروحته : (الصورة الفنية عند شعراء رابطة العالم الإسلامي العالمية).
حصل على الدكتوراه من كلية الآداب بجامعة الملك سعود، وكانت أطروحته: (جهود الدكتور محمد محمد أبوموسى البلاغية، الأدوات والإجراءات).
البريد الالكتروني: aboameer3000@hotmail.com

أهم التوصيات: إقامة دراسات موسعة ومقارنة بين أوجه الإعجاز المتنوعة، مع ضرورة إعادة النظر في طرق تمكين هذه الأوجه ونقلها من حيز القرآن الكريم إلى الألسنة لتكون البلاغة القرآنية سببا في جمال الكلام وفنيته.

الكلمات المفتاحية: الإعجاز، أوجه الإعجاز، التأثيري.

Summary

The research studies the influential miracle of the Holy Quran by focusing on two dimensions: status and empowerment. Status is through reviewing the opinions of scholars about it and its rank among other kinds of miracles. As for empowerment, it is through ways of benefiting from it at multiple levels of speech and employing it in a good manner appropriate to the context.

Research objectives: The research aims to highlight the status of the influential miracle among other kinds of miracles of the Holy Qur'an. It also aims to clarify the status of this type of miracle, as well as the best methods to benefit from it.

Most important results: The influential miracle has a high status among other kinds of miracles, and most of the ancient and recent scholars have noted this status. This type of miracle is distinguished from other aspects of the miracle by the diversity of means of benefiting from it and employing it in written and oral speech.

Important recommendation: Conducting extensive studies and comparisons between the various aspects of miracles, with the need to reconsider the ways to empower these aspects so that Quranic eloquence becomes a reason for the beauty and artistry of speech.

Keywords: miracle, miraculous aspects, influential

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين .. وبعد

فإن الله جلا وعلا قد شرّف اللغة العربية أن جعلها لغة القرآن الكريم، وتحدّى بهذا الكتاب أقواما برزوا في الفصاحة والبيان فأعجزهم أن يأتوا بمثله أو بجزء منه، واعترفوا بفضله، مقرين بتميزه، خاضعين منقادين.

وبناء على ذلك طفق العلماء من قرون متطاولة يستظهرون مواطن الإعجاز في القرآن الكريم، فاختلفت آراؤهم، وتعددت أقوالهم، فاتفقوا في جوانب واختلفوا في أخرى، ومن أبرز أوجه الإعجاز التي ذكروها (الإعجاز التأثيري) وهو يمتاز عن غيره من أوجه الإعجاز الأخرى ولذا آثرت أن أخصّه بهذا البحث الذي وسمته بـ (الإعجاز التأثيري، دراسة في المكانة والتمكين).

موضوع البحث

يتناول البحث مكانة الإعجاز التأثيري من خلال تنويه القرآن الكريم بشرفه، واحتفاء العلماء به، وتميزه على باقي الأوجه البلاغية الأخرى بخصائص وسمات، كما يتناول البحث وسائل التمكين الذي تجعل الإعجاز التأثيري في مكانه اللائق به من خلال توظيفه في السياقات الاجتماعية والخطابية والإفادة منه في الحجاج والتأثير.

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في عدة تساؤلات: ما مكانة الإعجاز التأثيري من خلال القرآن نفسه؟ ومن خلال كلام العلماء؟ وهل الإعجاز التأثيري يمتاز عن غيره من أوجه الإعجاز الأخرى أم أنه مكمل لها؟ وهل الإعجاز التأثيري خاص بالقرآن الكريم أم يمكن الإفادة منه في الخطابات والسياقات الاجتماعية والحجاجية؟

أهمية البحث

يتميز هذا البحث بالمقارنة بين أوجه الإعجاز المختلفة التي أقرها العلماء وبيان فضل الإعجاز التأثيري وما اختص به عنها، ومحاولة الوقوف على سبل الإفادة من طاقة الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم حتى لا تكون حبيسة بين دفتيه، وهاتان الميزتان أحسب أنه مما سبق إليه البحث حسب اطلاعي.

أهداف البحث

أولاً: إبراز مكانة الإعجاز التأثيري بين أوجه الإعجاز الأخرى.

ثانياً: بيان طرق الإفادة من الإعجاز التأثيري في الخطابات والسياقات الاجتماعية.

منهج البحث

سلكت في هذا البحث المنهج الاستقرائي الذي مكنني من الوقوف على بعض أقوال العلماء في الإعجاز ووجه كل قول، كما مكنني هذا المنهج من جمع بعض آرائهم في الإعجاز التأثيري، واستخلاص مميزات هذا اللون، وطرق الإفادة منه.

حدود البحث

سيتناول البحث ما يتعلق بالإعجاز التأثيري دون الأوجه الإعجازية الأخرى إلا على سبيل المقارنة والموازنة، كما سيتناول هذا الإعجاز من وجهة نظر بلاغية بعيدة عن مباحث علوم القرآن.

إجراءات البحث

أولاً: وقفت على مسببات الإعجاز التأثيري من قصة وضرب مثل ونحوها.

ثانيًا: جمعت آراء العلماء في أوجه الإعجاز القرآني، وقارنت بينها وبين الإعجاز التأثيري.

ثالثًا: نظرت في القرآن نفسه لاستخلاص الآيات التي تدعم هذا الوجه الإعجازي، وعضدت ذلك ببعض المواقف التاريخية التي تؤكد مكانته.

رابعًا: استخلصت المميزات التي حظي بها الإعجاز التأثيري فأكسبته حضوره البارز.

خامسًا: جمعت الوسائل التي يمكن أن تسهم في تمكين الإعجاز التأثيري في السياقات الاجتماعية.

الدراسات السابقة

هناك دراسات كثيرة، ينتمي أغلبها إلى حقل علوم القرآن وليس البلاغة، ومن أهمها:

أولاً: الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم د. خالد بن محمد القضاة[١]: مقال أفاض في العرض التأريخي للإعجاز التأثيري عند القدماء والمعاصرين، ثم ركز على شواهد من السيرة النبوية على هذا التأثير.

ثانيًا: إعجاز القرآن التأثيري، خالد بن علي العمري: (بحث تكميلي للماجستير في القرآن وعلومه)[٢] تحدث عن علاقة الإعجاز التأثيري بالإعجاز النفسي، وتكلم عن أسباب الإعجاز، ثم تحدث عن مظاهر تأثير القرآن الكريم في مستمعيه.

ثالثًا: نشأة الإعجاز التأثيري للقرآن وتطوره: د. محمد السقا عيد[٣]: (مقال) تكلم عن نشأة الإعجاز القرآني في القديم والحديث، وفصل فيها لاسيما عند بعض المعاصرين.

(١) منشور في موقع إعجاز القرآن والسنة https://quran-m.com/

(٢) البحث نوقش في جامعة آل البيت بالأردن، وهو منشور مفردا في الشبكة بصيغة pdf على الرابط http://mohamedrabeea.net/library/pdf/3a0b5857-7a5d-4648-af77-ee93605692a3.pdf

(٣) منشور في موقع إعجاز القرآن والسنة https://quran-m.com/

رابعًا: الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم د. زياد عواد أبوحماد (بحث محكم)[١] يتكلم عن تأثير القرآن في نفوس مستمعيه، وكيف ارتقى بالأمة إلى المراتب العليا، ثم انحدارها وترديها، وبعد ذلك يبحث في الأسباب والعلاج.

الجديد في البحث

تميز البحث عما سبقه بتقديم مقارنة علمية بين وجوه الإعجاز، وتبيين الخصائص التي تميز الإعجاز التأثيري عن غيره، كما تميز بالجمع بين الدراسات القديمة والحديثة، والكشف عن آليات علمية للإفادة من الإعجاز التأثيري في المقامات والسياقات الاجتماعية والحجاجية.

خطة البحث

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة على النحو الآتي:

المقدمة وتشتمل على: موضوع البحث ومشكلته وأهميته وأهدافه والمنهج المتبع في الدراسة وحدود البحث، وإجراءاته والدراسات السابقة والجديد الذي قدّمه البحث، والخطة التي سيسير عليها البحث:

التمهيد، وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مفهوم الإعجاز التأثيري.
- المبحث الثاني : موقف العلماء منه.
- المبحث الثالث : وسائل التأثير القرآني، التي من أهمها القصة والحوار والمثل .

الفصل الأول : مكانة الإعجاز التأثيري: وفيه مبحثان:

(١) نشر في مجلة العلوم الاقتصادية والقانونية بجامعة دمشق، المجلد ١٨ العدد ١ سنة ٢٠٠٢م من صفحة ٣٥٧ - ٣٨٧

- المبحث الأول: أوجه الإعجاز القرآني، التي منها الصرفة والنظم الإخبار بالغيب.
- المبحث الثاني : مكانة الإعجاز التأثيري بين ألوان الإعجاز الأخرى، وفيه تحدثت عن تأكيد القرآن على هذا اللون من الإعجاز، وكذلك تنويه العلماء به، واجتماع عناصر القوة التأثيرية فيه.

الفصل الثاني : مميزات الإعجاز التأثيري، التي منها: انسجامه مع أوجه الإعجاز الأخرى، وعدم افتقاره للوازم العلم والإيمان وثبوت تأثيره بالتجربة والواقع وربط بلاغة القرآن بعظمة منزله.

الفصل الثالث : تمكين الإعجاز التأثيري، وفيه تحدثت عن عدة وسائل منها: إبراز ميزاته، والقيام بتجارب عملية وواقعية وفتح المجالات أمام الباحثين لاستنباط ملامح التأثير.

الخاتمة والمراجع وفهرس الموضوعات.

التمهيد

المبحث الأول: مفهوم الإعجاز التأثيري

أنزل الله ﷻ القرآن الكريم بخير لغة وأفصح بيان، تحديًا للعرب الذين برزوا في ميدان اللغة ونبغ فيهم الشعراء والأدباء، وقد جاء القرآن الكريم متحدياً لهم فيما برزوا فيه، ولما رأى العرب قوة البيان القرآني عجزوا عن إدراكه وأيقنوا بانفراده .

وقد درس العلماء جيلا بعد جيل مظاهر الإعجاز التي من أبرزها : **الإعجاز التأثيري**، وسنقف في هذا التمهيد على مفهومه ودلالته .

التأثيري : مصدر مشتق من الفعل: (أثّر) ومصدره (تأثير) ثم نسب إلى المصدر فصار (التأثيري) وهو ما يبقى بعد رحيل الشيء وينتج عنه، قال تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧] وقال سبحانه : ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] والتأثير: إبقاء الأثر في الشيء، وأثر في الشيء ترك فيه أثرا، والأثيرة من الدواب: العظيمة الأثر في الأرض بخفها أو حافرها[١] .

ويظهر مما سبق أن عملية التأثير تكون بين طرفين : مؤثر ومتأثر، فأما الأول فالقرآن الكريم وأما الثاني فالقلوب، والإعجاز التأثيري "وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أشار إليه السابقون ويتمثل فيما تركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن في سامعه أو قارئه، ولا

(١) انظر لسان العرب لابن منظور، ٤/ ٥-٦.

يستطيع السامع أو القارئ مقاومته ودفعه، ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به"[1]، فالأثر ظاهر أو باطن كما ذكر التعريف، فالظاهر بالإطراق والسكون، والباطن بالأفكار والتوجهات .

وقد جلّى لنا ربنا في كتابه العزيز هذا المفهوم بصورة بصرية فقال: اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ [الزمر: ٢٣] وهذا أثر ظاهر، إذ تقشعر الجلود وتنقاد القلوب للحق، ومن الآثار الباطنة ما جاء في قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] فالإيمان يتأثر ويرتفع .

(١) الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي للأستاذ شحات صقر، ٣٣.

المبحث الثاني

موقف العلماء منه

ذكر العلماء السابقون أوجه الإعجاز القرآني وأفاضوا فيها إلا أن أول من ذكر (الإعجاز التأثيري) هو الإمام الخطابي (ت: ٣٨٨هـ) الذي أشاد بهذا النوع وعدّه الفاصل بين كلام الله وكلام غيره، يقول الخطابي: "قلت في إعجاز القرآن وجهاً آخر ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس"[١] ثم بدأ يقارن بين أثر القرآن وأثر غيره، يقول: " فإنك لا تكاد تسمع كلاما غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه"[٢] ثم بين أثره النفسي، يقول : "وتستبشر به النفوس، وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق"[٣] وله أثر كبير في الجوارح يقول: "تقشعر منه الجلود وتنزع له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها "[٤] وبيّن الخطابي أثر القرآن الكريم في أعداء الرسول الذين يتربصون به الدوائر، يقول : "فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته ويدخلوا في دينه فصارت عداوتهم موالاة وكفرهم إيماناً "[٥].

(١) بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ٧٠.
(٢) السابق، ٧٠.
(٣) نفس السابق
(٤) نفس السابق
(٥) نفس السابق

وقد ألّف الباقلاني (ت: ٤٠٢هـ) كتابا سماه **"إعجاز القرآن"** يرد فيه على الطاعنين في بلاغة القرآن ويثبت أوجها من إعجازه، ومن هذه الأوجه : تأثير القرآن فقد ذكر في الوجه العاشر تأثير القرآن الكريم في النفوس لصدوره عن الله ﷻ، يقول: "فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان ووقوعه في النفس موقع القبول، وإذا علا الكلام في نفسه كان له من الوقع في القلوب والتمكن في النفوس ما يذهل ويبهج، ويطمع ويؤنس، ويضحك ويبكي، ويحزن ويفرح، ويسكن ويزعج، ويشجي ويطرب، ويهز الأعطاف ويستميل نحوه الأسماع، ويورث الأريحية والعزة، وقد يبعث على بذل المهج والأموال شجاعة وجوداً، ويرقى السامع من وراء رأيه مرمى بعيداً وله مسالك في النفوس لطيفة، ومداخل إلى القلوب دقيقة "[1] .

فأمارة التفوق البلاغي أن يؤثر الكلام في المستمع والمتلقي فيحدث فيه سلوكا لم يكن فيه من قبل، وهذا ناجم عن الاستحسان ثم الانبهار، وهذه الدرجة من التأثير عالية فهي تقلب النفس من ضحك إلى بكاء ومن حزن إلى فرح .. وهكذا .

أما عبدالقاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) فقد أرجع الإعجاز القرآني إلى النظم، ولما تركّب القرآن الكريم من هذا النظم المبدع أحدث تأثيراً في النفوس مسلمة وغير مسلمة، يقول : "ومن هذا الذي يرضى عن نفسه أن يزعم أن البرهان الذي بان لهم – أي للعرب – والأمر الذي بهرهم، والهيئة التي ملأت صدورهم، والروعة التي دخلت عليهم فأزعجتهم حتى قالوا: "إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر"[2] إنما كان لشيء راعهم من

(١) إعجاز القرآن للباقلانيK ٢٧٧.

(٢) القصة مشهورة رواها الحاكم وغيره من حديث ابن عباس.

موقع حركاته، ومن ترتيب بينها وبين سكناته أم لفواصلَ في أواخر آياته ؟ من أين تليق هذه الصفة وهذا التشبيه بذلك"[١] وإنما قال ذلك تقريرا لمبدأ التأثير القرآني واستبعاداً لكل ما يظن أنه سر الإعجاز وإن لم يصرح به .

أما ابن القيم (ت: ٧٥١ هـ) فقد تحدث عن شرط التأثير وهو تطهير القلب وحضوره لأن القلب وعاء للقرآن الكريم، فإذا كان القلب منصرفا لم يقع القرآن في وعائه، وإن كان غير نظيف لم يكن ذلك لائقا بالقرآن الذي هو الطاهر من كل وجه، يقول ابن القيم: "إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته، وألق سمعك، واحضر حضور من يخاطب به من تكلم به سبحانه منه إليه، فإنه خطاب منه لك على لسان رسوله ﷺ قال تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧] وذلك أن تمام التأثير لما كان موقوفاً على مؤثر مقتضٍ ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه تضمنت الآية بيان ذلك كله بأوجز لفظ وأبينه وأدله على المراد "[٢] .

ثم بين أدوات التأثير التي إن اجتمعت حصل التأثير، يقول: "فإذا حصل المؤثر وهو القرآن والمحل القابل وهو القلب الحي ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفاع بالقرآن والتذكر"[٣].

ويشهد القرآن لما ذكره ابن القيم رحمه الله، فإن المشركين لما علموا شدّة تأثير القرآن على من أصغى إليه واستمع أمروا أتباعهم بعدم الاستماع له واللغو فيه حتى لا ينفذ إلى القلب فيؤثر فيه، قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾

(١) دلائل الإعجاز في علم المعاني لعبدالقاهر الجرجاني، ٣٨٨.
(٢) الفوائد، لابن قيم الجوزية، ٣.
(٣) نفس السابق.

[فصلت: ٢٦] وهل بعد التأثير على الصخور الصم تأثير، قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

أما السيوطي (ت: ٩١١ هـ) فقد جعل تأثير القرآن أحد وجوه إعجازه قال: "الوجه العشرون من وجوه إعجازه الروعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه "[١] وهذا أثر بيِّن لآيات الوعيد التي هدّد الله بها العصاة، وفي موقف عتبة بن ربيعة خير شاهد، إذ سمع من النبي ﷺ آيات من سورة فصلت وفيها تهديد ووعيد: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣] فتأثر عتبة ووضع يده على فم النبي ﷺ وناشده أن يسكت[٢]، يقول السيوطي مبينًا حال الهيبة الناتجة عن تأثير القرآن "والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته لقوة حاله وإبانة خطره، وهي على المكذبين به أعظم، حتى كانوا يستثقلون سماعه ويزيدهم نفورا كما قال تعالى ويودون انقطاعه لكراهتهم له .."[٣]، هذا بالنسبة لغير المسلم.

أما المسلم فإنه يتأثر لكن ليس كالأول، لذا يقول السيوطي: "وأما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته إياه مع تلاوته توليه انجذابًا وتكسبه هشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به، قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣][٤].

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) لجلال الدين السيوطي، ١/ ١٨٢.
(٢) سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) لمحمد بن إسحاق، ٢٠٧.
(٣) معترك الأقران، ١/ ١٨٢.
(٤) السابق، ١/ ١٨٣.

ثم تحدّث السيوطي عن صنف ثالث يتأثر بالقرآن مع عدم معرفته بمعناه، يقول : " ويدل على هذا شيء خُصّ به أنه يعتريه من لا يفهم معانيه ولا يعلم تفاسيره، كما روي من نصراني أنه مر بقارئ فوقف يبكي !! فقيل : مم بكيت؟ قال : للشجاعة والنظم"(١) ثم شرع في الأمثلة على تأثير القرآن.

وتبين من كلام الإمام السيوطي أن التأثير يختلف باعثه باختلاف محله، فالكافر والمعرض تهزه آيات الوعيد وتؤثر عليه، والمؤمن يخضع ويخشع لآيات الهيبة والجلال، أما خالي الذهن الذي ليس بمعرض ولا بمؤمن فلم يصرّح السيوطي بباعث تأثره، ويظهر أن ذلك راجع إلى خصيصة ميز الله بها كتابه فجعل له تأثيرا لو أنزل على جبل لأصبح خاشعاً متصدعاً.

وهنا يتبين أن العلماء على اختلاف زمانهم قد نوّهوا بالإعجاز التأثيري الذي يشهد له الواقع الحاضر والتاريخ الماضي، ولكنهم اختلفوا في سر هذا التأثير فتنوعت تعليلاتهم وتأويلاتهم، ولا ريب أن ثمة وسائل مكّنت لهذا التأثير ولذلك أفردته في المبحث الآتي.

(١) السابق نفسه.

المبحث الثالث

وسائل التأثير القرآني وأهم وظائفه

اعتمد القرآن الكريم على وسائل لها طاقتها التأثيرية على المتلقي، لم يكن القرآن قد ابتدأها، جاءت على سنن كلام العرب ومذاهبهم في الفصاحة والبلاغة، وما عرفوه وخبروه وأدركوا أنه جنس مميز لما يألفون من البيان، وقد أحسن القرآن الكريم توظيفها وجعلها في سياقها الملائم، وعرضها في قوالب جديدة تذكي الذهن وتزيد في تأثير المعاني .

ومن أبرز الوسائل التأثيرية في القرآن الكريم :

أولاً : القصة : صرّح القرآن الكريم بأثر القصة في قلب النبي ﷺ ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] لأن هذه القصص تذكر له ما جرى لإخوانه الأنبياء مع أقوامهم وكيف صبروا على أذاهم، فكان يستحضر هذه المواقف إن جرى له شيء من عناد قومه وصدودهم .

ولتأثير القصة وبليغ أثرها اختار النبي ﷺ آيات فيها مواقف للسابقين المكذبين وكيف عذبهم الله تعالى اختارها ليسمعها بعض المكذبين، كما في قصة عتبة حينما تلا عليه سورة فصلت[1].

ولعل من بواعث تأثير القصة القرآنية صدق ما أخبرت به، والمفارقة العجيبة أن مبلغها أُمي لا يقرأ ولا يكتب ولم يدرك هذه الأحداث، ولذا أشار القرآن إلى ذلك: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فلست شاهداً لتقص ما رأيت، ولا قارئاً لتنقل ما قرأت، ولا كاهنا لترجم بالغيب من مكان بعيد.

(١) سبق ذكرها.

ويعد **الحوار** ركنا متينا من أجزاء السرد القصصي، فهو وسيلة لخلق الحياة وتجسيد الحدث، وإبراز أصوات متعددة تحكي وتقص، إلا أنه في كثير من أحيانه يتجاوز عناصر القص الأخرى من وقت ومكان وغيرهما، ويركز على القضية التي يتجاذبها الحديث .

كما أن الحوار يبرز مستوى الحجاج الذي هو من أُسس التأثير لما يحمله من برهنة وإقناع، فموسى عليه السلام يطلب من الخضر أن يصاحبه فيعتذر لعدم صبره على ماسيراه، لكن موسى يصرّ ويعلق صبره بالمشيئة، ثم تمضي الأحداث قليلا فيقع ما كان الخضر يخشاه فيتعلل موسى بالنسيان، وبعد الموقف الثالث من موسى يعلن الخضر حالة الفراق ويعلل لأفعاله التي لم يطق لها موسى صبرًا[١].

وأبلغ من هذا حجاج سيدنا إبراهيم عليه السلام مع الملك الذي ادّعى أنه يحيي الموتى[٢]، والحوار هنا عنصر مهم في التأثير وربط أجزاء النص وإيجازه ومتانته، فالحوار محكم موجز، قرع الباطل بأوجز عبارة وأبلغها، ومثّل للعيان مشهدا مرئيا لإبراهيم عليه السلام وخصمه وهما يتحاوران ويتحاجان أمام قوم الملك، ويصور التغير الكائن على وجه الملك-الذي لم ينص البيان القرآني على ذكر اسمه لعدم الحاجة لذلك-بقوله (فبهت) أي: تغير واربد وعلت وجهه صفرة غيرت لونه، وحُبس عن إكمال محاجته، فالتأثير هنا داخلي بدا أثره سريعا على الجوارح الخارجية.

ويسوق القرآن الكريم حواراً بالغ التأثير بين أخوين انتهى الأمر بأحدهما أن قتل صاحبه[٣]، وقد أبرز الحوار فضل الصلاح في صورة القدوة الصالحة الذي كان شفيقا

(١) انظر للآيات في سورة الكهف (٦٦- ٨٢).
(٢) الآية في سورة البقرة (٢٥٨).
(٣) قصة ابني آدم ذكرت في سورة المائدة (من آية ٢٧ حتى ٣١).

على أخيه، إذ قابل تهديد أخيه له بالقتل ببيان الصفة التي عليها مـدار القبـول وأبـان موقفه من التهديد.

هذا الحوار يوصل للمتلقي بصورة غير مباشرة خطورة الحسد لاسيما بين الإخوة الذي ربما يؤول إلى القتل، وبؤرة التأثير بناء المشهد على الحوار ووضع المتلقي أمام الحدث مباشرة وإظهار المونولوج (الحوار الداخلي أو الصراع) لحوار القاتل مع نفسه : ﴿چئي ئى ئى ئد ى ى ي ي ئج ئحئم چ[المائدة: ٣١].

ثانيا: المثل: القرآن الكريم كتاب تذكير ووعظ وحث وزجر، فيه المعاني المحسوسة والمعاني العقلية التي تحتاج إلى تقريبها لتستقر في الأذهان وترسخ في الوجدان، قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال إبراهيم النظّام[١]: "يجتمع في المثل أربع لا تجتمع في غيره من الكلام : إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه وجودة الكناية"[٢] فأما إيجاز اللفظ فمرده إلى مقابلة المثل في لفظه بالمعنى الذي دلّ عليه، فإن معناه واسع، وسِيقَ في أوجز لفظ، والمثل القرآني يصيب المعنى المراد ويجليه، ويعقد الربط بين طرفي تشبيه يتشاركان في عِدّة صفات، وفي هذه الصورة من المعاني اللازمة التي تقف نصيرة للمعنى وكاشفة له، ولعل هذه الميزات الأربع التي ذكرها النظّام هي سر تأثير الأمثال القرآنية .

ومما يدل على بليغ أثرها المقامات التي وردت الأمثلة فيها ومنها : بيان الإيمان والتمثيل

(١) أبو إسحاق النظام، إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري، من أئمة المعتزلة، ذكروا أن له كتبا كثيرة في الفلسفة والاعتزال، وقال عنه الجاحظ: الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له، فإن صح ذلك فأبو إسحاق من أولئك، (توفي سنة ٢٣١هـ) الأعلام، ١/ ٤٣.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري، ٣/ ٢.

له، وكشف الكفر والرد على شبهه، وفضح النفاق وتصوير الطيب والخبيث وغير ذلك[١] .

ويبرز الإمام عبد القاهر أثر الأمثال في نقل المعاني وتحريك النفوس، يقول: "اعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني .. كساها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها"[٢]، ثم أردف ببيان الأثر الحسي للأمثال في بعض ألوان الكلام، يقول : "إذا كان ذما كان مسه أوجع وميسمه ألذع ووقعه أشد وحدّه أحد، وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور وسلطانه أقهر وبيانه أبهر، وإن كان افتخارًا كان شأوه أمد وشرفه ولسانه ألد، وإن كان اعتذارًا كان إلى القبول أقرب وللقلوب أخلب، وإن كان وعظًا كان أشفى للصدور، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر"[٣] .

والأمثلة في القرآن الكريم جاءت على لونين :

الأول : صريحة، وهي أمثلة ظ

الأول: صريحة، وهي أمثلة ظاهرة كشفت عنها الآية كقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧][٤].

الثاني : كامنة : لا تصرح بها الآية وإنما تشير إليها، وتطلب من القارئ أن يقف عليها ليستخرج دلالاتها، كقوله سبحانه : ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ

(١) انظر: مقال للأستاذ محمد شاهر يامين في موقع صيد الفوائد /http://www.saaid.net

(٢) أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني، ١١٥.

(٣) السابق، ١١٦.

(٤) انظر: المقال المتقدم للأستاذ محمد شاهر، وانظر: أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع للدكتور عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، ٤٥ – ٥٥.

خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩][1].

وتُقسم الأمثلة بحسب غايتها إلى ثلاثة أقسام :

الأول : التمثيل الرمزي : وهو ما يأتي على لسان الطيور والحيوانات كقصة النملة مع سليمان عليه السلام فإنه مثل رُمز لقدرة الله جل جلاله أن يؤتي بعض عبيده ما يشاء من الخوارق التي تخالف العادة[2].

الثاني : التمثيل القصصي : وهو ما جاء ليبين أحوال الأمم وقصصهم للعبرة كقوله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠][3].

الثالث : التمثيل الطبيعي (الحسي) : وهو إخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، كقوله تعالى : إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤][4].

(١) انظر السابق.
(٢) انظر السابق.
(٣) انظر السابق.
(٤) ا نظر السابق.

الفصل الأول

مكانة الإعجاز التأثيري

المبحث الأول: أوجه الإعجاز القرآني

عني العلماء في دراسة الإعجاز ببيان السر المعجز للقرآن الكريم، فالله ﷻ تحدى قوما أشداء في حجاجهم، فصحاء في بيانهم ولكنهم عجزوا عن مجاراة القرآن، بل حدثنا التاريخ عن إعجابهم حتى آمن كثير منهم، ولذا طفق العلماء كما أسلفت يفتشون عن مبعث الإعجاز، حتى توصلوا إلى أوجه أعادوا الإعجاز إليها، منها :

أولاً: الإعجاز بالغيب: وهي أن القرآن الكريم ذكر أحداثا سابقة لا يعرف العرب تفصيلاتها، أو أحداثا مستقبلية وقعت كما أخبر القرآن الكريم، فكان عجز العرب حين أيقنوا صدق القرآن فيما أخبر وعدم قدرتهم على مجاراته، وقد ذكر هذا الوجه جمع من العلماء منهم (الرماني ت: ٣٨٦هـ) إذ عدّه الوجه الخامس من أوجه الإعجاز، قال فيه: "وأما الأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة فإنه لما كان لا يجوز أن تقع على الاتفاق دلّ على أنها من عند علام الغيوب"[1]، وذكره الباقلاني (ت: ٤٠٣هـ) إذ ذكر ثلاثة أوجه للإعجاز، أحدها أنه يتضمن الإخبار عن الغيوب، وذلك مما لا يقدر عليه البشر ولا سبيل لهم إليه[2] .

أما ابن عطية (٥٤٢هـ) فإنه أضاف إلى هذا الوجه أمرًا ذا بال، إذ أورد أن هذا الوجه من الإعجاز على سمو مكانته إلا أنه يعد خاصاً لمن تقررت الشريعة في قلبه، أما من أنكر

(١) النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ١١٠.
(٢) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ٣٣.

القرآن وجحد أن يكون من عند الله فإنه لا يقع عنده بمكان[١]، ولكن شواهد التاريخ لا تؤيد ما ذهب إليه ابن عطية فإن العرب على شركهم يعرفون صدق النبي ﷺ وبما جاء به لاسيما أنهم رأوا بعض الغيوب تتحقق أمامهم فزاد يقينهم بصدق أخبار القرآن الكريم، وقد وجهوا للنبي ﷺ أسئلة يزعمون يقينا أنهم يعجزونه، فجاء القرآن الكريم بتفصيلات لما سألوا أعجزتهم[٢].

ثانياً : الإعجاز بالصرفة: والمقصود به أن الله صرف العرب عن معارضة القرآن، ولولاها لاستطاع العرب معارضة القرآن والإتيان بمثله[٣] .

ومن أوائل من أذاع هذا القول إبراهيم النظام (ت: ٢٣١هـ)[٤] وهذا الوجه خطير جداً، لأنه يترتب عليه أن القرآن مقدور على مثله ولكن الله منع من ذلك، وقد اشتهر هذا الوجه عند المعتزلة، وردّ الجاحظ في كتابه "الاحتجاج لنظم القرآن"[٥] على النظّام، وأثبت أن القرآن الكريم معجز بنظمه لا بصرف العرب عنه، وكذلك الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ) فقد ردّ على النظّام واستشهد في نقضه للصَّرفة بآية الإسراء ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] يقول الخطابي معلقا على الآية: "فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلّف والاجتهاد، وسبيله التأهب والاحتشاد، والمعنى في الصَّرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة، فدلّ على أن المراد

(١) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية، ١/ ٥٢.
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٢٦٦.
(٣) انظر: القول بالصرفة في إعجاز القرآن، أ.د عبدالرحمن بن معاضة الشهري، ١٥.
(٤) انظر مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري، ١/ ١٧٩.
(٥) الكتاب مفقود، ولكن له إشارات في كتاب الرسائل للجاحظ، ٣/ ٢٨٧.

غيرها"[١]، وفي المقابل نصر طائفة من العلماء هذا الوجه وعدوا الصَّرفة سبب الإعجاز ومنهم ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ)[٢] وأبو المعالي الجويني (ت: ٤٧٨هـ)[٣] ويعدُّ الشريف المرتضى (ت: ٤٣٦هـ)[٤] أبرز من استوفى الكلام عن الصرفة في عدد من كتبه.

تبين مما تقدم أن الصرفة وجه ارتضاه كثير من المتكلمين وعارضه آخرون لأسباب ذكروها أجدها وجيهةً في تهوين الاحتجاج بالصرفة وجعلها سر الإعجاز الذي تحدى الله به العرب .

ثالثاً : الإعجاز ببلاغته : وهو من أوجه الإعجاز، وأبرزها حضورا في كلام المتقدمين مثل الرماني والخطّابي[٥].

وتظهر وجاهته بالنظر في أحوال العرب الذي أنزل عليهم القرآن، فقد كانوا أهل فصاحة وبيان وشعر وخطابة، فجاء القرآن الكريم معجزاً لهم فيما ثقفوا فيه وجرت ألسنتهم في أوديته.

غير أنه يشكل على هذا الوجه تحديد البلاغة المعجزة في القرآن الكريم، أهي في ألفاظه؟ أم معانيه ؟ أم صوره ؟ أم تراكيبه ؟ وقد وقف الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ) على هذا الإشكال، يقول: " وزعم آخرون أن إعجازه من جهة البلاغة وهم الأكثرون من علماء أهل النظر، وفي كيفيتها يعرض لهم الإشكال، ويصعب عليهم منه الانفصال"[٦] ويؤكد هذا الإشكال حيرة

(١) بيان إعجاز القرآن، ٢٣.
(٢) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، ١/ ٨٧.
(٣) انظر العقيدة النظامية للجويني، ٢٣٤-٢٣٦.
(٤) انظر كتابه الذخيرة في علم الكلام.
(٥) انظر: النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ٧٥، وانظر: بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ٢٩.
(٦) بيان إعجاز القرآن، ٢٤.

العلماء في تحديد كنه الإعجاز البلاغي، فقالوا: لا يمكننا تصويره ولا تحديده بأمر ظاهر وإنما يعرفه العالمون به عند سماعه!![١].

يقول الشيخ محمود شاكر: "الحقيقة أن البلاغة التي جعلوها وجها من وجوه الإعجاز إذا أنت ذهبت تتطلب بيانها وجدتها محفوفة بالإبهام، لا تثبت على النظر"[٢] والعجب أن الخطابي الذي استشكل أن يكون الإعجاز من جهة البلاغة قرّر بعد كلامه السابق أن القرآن الكريم معجز بالبلاغة ! ثم قسّم الكلام من جهة البلاغة إلى ثلاثة أقسام : البليغ الرصين الجزل، والفصيح القريب السهل، والجائز الطلق الرسل، وقد حازت – كما يرى الخطابي – بلاغة القرآن على نصيب من كل قسم[٣].

ومع محاولة الخطابي إلا أن الإبهام لايزال قائما، إذ كيف لنا أن نحدد هذه الأقسام في القرآن على وجه الدقة، وإذا تعذر ذلك فأنى لنا أن نجعل الإعجاز خارجا من هذه التقسيم الثلاثي.

رابعاً : الإعجاز بالنظم: حين شاعت مقولة النظام أن الإعجاز بالصَّرفة تصدى له الجاحظ كاشفا بطلان هذا الرأي وألف كتاباً سماه "نظم القرآن وبديع تركيبه وغريب تأليفه" وهذا الكتاب مفقود اليوم وقد أشار إليه الجاحظ في بعض كتبه[٤] .

ثم جاء القاضي عبدالجبار (ت: ٤١٥هـ) وأعاد فكرة النظم بمسمى آخر يشترك في مفهومه العام مع النظم وهو الضم كما سيأتي لاحقا في كلام عبد القاهر، يقول القاضي

(١) السابق، ٢٤.
(٢) مداخل إعجاز القرآن، ٨٤.
(٣) انظر بيان إعجاز القرآن، ٢٦.
(٤) انظر الرسائل للجاحظ، ٣/ ٢٨٧ .

عبدالجبار: "اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة، وقد يجوز في هذه الصفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموقع .."[١] وحاصل هذا أن اللفظ المفرد لا تظهر مزيته إلا في سياق مع استصحاب أمرين : الأول : الصفة التي يدل عليها اللفظ، الثاني : موقعه الإعرابي .

ثم جاء عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) وأفاد ممن سبقه واستفاض في نظرية (النظم) حتى عرف بها، وأرد بذلك التوصل إلى أن الإعجاز بها فحسب، ولذلك صرح في أول كتابه (دلائل الإعجاز) أن الهدف من تأليفه أن يمكّنَ القارئ من وضع يده على الخصائص والمزايا التي تعرض في الكلام حتى يفضل بعضه بعضاً، ثم يتعاظم ذلك الفضل حتى يبلغ حد الإعجاز الذي تنقطع عنده أعناق البلغاء وتنحسر دونه، مطامعهم فيقرون جميعا بالعجز[٢].

وهذه النظرية على مكانتها تثير إشكالاً في قضية الخصوصية ذكرها عبد القاهر نفسه، فالنظم كما يراه تأليفُ الكلام ونظمه ونسجه على وفق مخصوص يكون له مزية في الدلالة على المعنى، وهذه الخصوصية لا بد من وصفها وصفا دقيقا مفصّلا وإيراد الأمثلة الكافية عليها، يقول: "ولا يكفي أن تقولوا: إنه خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلم بعضها على بعض حتى تصفوا تلك الخصوصية وتبينوها وتذكروا لها أمثلة"[٣] .

إذا فالنظم نابع من الخصوصية المبرهنة بالشواهد، وهذه العملية تختلف باختلاف أذواق

(١) المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبدالجبار، ١٦/ ١٩٩.
(٢) دلائل الإعجاز، ٧.
(٣) السابق، ٣٦.

العلماء وتوجهاتهم، فربما يرى عالم أن هذا النظم تحديدًا له ميزة وخاصية في الدلالة، ويسوق الشواهد، بينما يأتي عالم آخر فيستخرج معنى آخر مغاير لما أثبته من أمثلته ذاتها، ويقوّي هذا الاحتمال أن نظرية النظم تستهدف في المقام الأول القرآن الكريم الذي هو رحب الدلالات تتفاوت فيه أفهام العلماء وتختلف فيه اجتهاداتهم .

المبحث الثاني: مكانة الإعجاز التأثيري بين ألوان الإعجاز

تبين مما سبق بعض ألوان الإعجاز التي يراها العلماء، وقد تنوّعت تعليلاتهم وتأويلاتهم ولم يتفقوا على قول، كما رأينا أن هذه الألوان لا تخلو من تعقب واستدراك، فربما تضيء جانبا دون جانب، فالإعجاز بالغيب مثلا إنما يصدق على نزر يسير من الآيات القرآنية أخبرت عن بعض الغيوب، ثم إن الله ﷻ لم يتحدَ المشركين بما هو خارج عن مقدورهم اتفاقًا، إذ ليس في طاقة الإنسان أن يعلم تفاصيل ما غاب عنه لاسيما إن لم يكن فيه ما يعتمد عليه، وقل مثل ذلك في الإعجاز العلمي الذي لاينطبق إلا على آيات محددة تحدثت عن معجزات أثبتها العلم الحديث في الأفلاك والبحار والفضاء ونحو ذلك، وبناء على ماتقدم فإن في أوجه الإعجاز خصوصا لآيات دون آيات، أو إبهاما يحار عنده المتلقي، ولذا جاءت الحاجة ملحة إلى رأي يجمع تحته آيات الكتاب العزيز ويسلم من الطعن والتهوين .

وللإعجاز التأثيري قوة وحضور بين وجوه الإعجاز، لارتباطه بالنفس والشعور، والنفس تميل إلى مايخاطب شعورها ويمس وجدانها، وهذه المكانة للإعجاز التأثيري باعثها مايلي :

أولاً : تأكيد القرآن عليه

فقد جاءت آياتٌ متظافرة تبين أثر القرآن في الإنسان، قال تعالى : ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣] وهذا تأثير خارجي له ما يشاكله داخلياً، فإذا كان الجلد يقشعر فإن القلب يوجل ويزداد إيماناً، قال تعالى في بيان صفات المؤمنين: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وأي تأثير أعظم من السجود خشية عند سماع القرآن : ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] والمشركون أيقنوا بتأثيره عند استماعه ولذا تواصوا بعدم الاستماع: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] ولما كان استماع القرآن مؤثرا أمر النبي ﷺ أن يجير المشرك حتى يستمع فيتأثر : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

هذه الآيات تنصّ على أن القرآن الكريم مؤثر على النفس أيا كانت مسلمة أو غير مسلمة، وهذا التأثير لم ترجعه الآيات إلى سبب، والشواهد الواقعية تؤكد بليغ هذا التأثير مصداقا لما جاء في القرآن الكريم .

ثانياً : تنويه العلماء به وذكرهم له

أشاد العلماء بالإعجاز التأثيري للقرآن الكريم وعدّوه وجها بارزًا من أوجه الإعجاز، ومن أولئك العلماء الخطابي (ت: ٣٨٨ هـ) الذي طفق يتلمس وجه الإعجاز الذي من أجله تحدى الله به الأولين والآخرين، يقول : "قلت في إعجاز القرآن وجها آخر، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس"[1] إذا

(١) بيان إعجاز القرآن، ٧٠.

المكانة كبيرة والمعرفة قليلة، واتساع المكانة نظرا لاستفاضة ذلك على الألسنة وعلى مشاهد الناس، ثم إنه على هذا لم ينل ما ناله غيره من البحث والدرس، ثم يؤكد الخطابي هذا التأثير بالمقارنة بينه وبين غيره من كلام، يقول: "فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص فيه إليه"(١).

وهذا التأثير ينفذ إلى أغوار النفس ليؤثر على المشاعر، يقول الخطابي : "تستبشر به النفوس وتشرح له الصدور حتى إذا أخذت حظّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشّاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها"(٢) .

وأكد الباقلاني (ت: ٤٠٢هـ) ما ذهب إليه الخطابي في تأثير القرآن وإن كانا قد اختلفا في أوجه الإعجاز الأخرى، يقول : "فالقرآن أعلى منازل البيان، وأعلى مراتبه ما جمع وجوه الحسن وأسبابه وطرقه وأبوابه، من تعديل النظم وسلامته وحسنه وبهجته، وحسن موقعه في السمع وسهولته على اللسان، ووقوعه في النفس موقع القبول.."(٣)، إذا فالقرآن يؤثر على القلب، ويملؤه بمشاعر متنوعة، لا يقف التأثير عندها إنما يتجاوزها للتأثير على الجوارح وبث الحماس في الإقدام والكرم(٤) .

ثالثاً : اجتماع عناصر القوة التأثيرية فيه

لتلاوة القرآن الكريم وترتيله على طريقة خاصة مطبقة فيها أحكام التجويد تأثير في

(١) السابق، ٧٠ .
(٢) السابق، ٧٠.
(٣) إعجاز القرآن للباقلاني، ٢٧٧.
(٤) تقدم ذكر جملة لأقوال العلماء في مبحث سابق بعنوان: (موقف العلماء منه).

نفوس من يستمعون إليه، إذ يقرأ بطريقة خاصة لا يشاركه فيها كلامٌ آخر من مدود وغُنن ونطق للحروف بمخارجها التي تواترت عن العرب، هذه الخاصية الصوتية تكسب القرآن أثرا لا تخطئه الأذن.

ومن عناصر القوة التأثيرية خاصية الأسلوب التي ملأت القلوب إجلالا، فإن القرآن عندما سمعه العرب لأول مرة أحسوا بحلاوته وطلاوته وحسن موقعه في النفوس، ولعل من بواعث ذلك خاصية الأسلوب، فالنص القرآني لم يتألف من الأشطر الشعرية، ولم ينظم كنظم الخطب والرسائل، إنما جاء مختلفاً في البناء قوياً في التأثير، على سور متجاورة متكون من آيات مفصلة محكمة.

ومن أمارات التأثير في النص القرآني تلوين الخطاب، فتجد أن القرآن الكريم أحياناً يثير العقل للتفكر: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٦] فيذكر له من عظيم المخلوقات ودقة صنعها وكمال خالقها ﷻ ما يدل على أنه المنفرد بالعبادة دون شريك، ويخاطب القرآن منكري البعث خطابا حسيا مصورا ينفذ إلى العقول ليتفكروا وينظروا فيما حولهم من أرض جرداء لا نبات فيها ولا ماء، فينزل عليها الغيث فتهتز وتربو : ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠].

ويخاطب القرآن القلب ليتدبر ويتبصر ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] ولشدة تأثيره على القلب انصدع قلب المشرك وعدّل مساره وترك دين قومه، ولذا لما سمع جبير بن مطعم ﷺ القرآن وكان وقتها على الشرك قال: " كاد قلبي أن يطير"[1] لأن القرآن أثار وجدانه، وحرّك مشاعره، فخضع لربه وأناب لمولاه .

(١) رواه البخاري برقم (٤٨٥٤).

الفصل الثاني
مميزات الإعجاز التأثيري

عندما تستعرض أوجه الإعجاز القرآني تجد أن أنصار كل رأي يحشدون البراهين التي تؤكد تمكنه وحضوره، وقد تبين مما سبق علو شأن الإعجاز التأثيري وتأكيد القرآن عليه، وتنويه العلماء بشأنه وفضله، وهذا يقف بنا على تلمس الميزات والخصائص التي اتسم بها، من أهمها:

أولاً : انسجام الإعجاز التأثيري مع أوجه الإعجاز الأخرى

عند التأمل في أوجه الإعجاز التي ارتضاها العلماء نجد أن الجزم بأحدها وجها للإعجاز يؤدي إلى انحسار الأوجه الأخرى، فمن رأى مثلا أن الإعجاز بالصَّرفة لا يقيم وزناً للأوجه الإعجازية التي اختارها غيره، وذلك من لوازم قوله وإن لم يصرح بذلك، إذا لا يمكن أن يجمع بين الرأي بالصرفة والرأي بالنظم مثلا، أما الإعجاز التأثيري فإنه منسجم مع الأوجه الأخرى ويمكن أن يجمع بين التأثير والنظم أو التأثير والصرفة، فليس القول بهذا دافعا للآخر؛ لأن التأثير ناتج وليس سابق للنص، ثم إنه صالح لأن يعود لأي وجه من أوجه الإعجاز .

ثانياً : عدم افتقاره للوازم العلم والإيمان

أغلب الأوجه الإعجازية يستلزم إدراكها العلم أو الإيمان أو هما معاً، فالإعجاز بالنظم لا يدرك إلا بعد الإلمام بطرق العرب في إبانتها، وأحوال الجمل والتراكيب وأوجه النحو الجائزة والممتنعة وغير ذلك، والإعجاز بالبلاغة لا يتصور إلا بمعرفة أساليب الجمال وقدرها وأثرها على الإبانة والتفريق بين الأنواع .

أما الإعجاز بالصَّرفة فلا بد أولا من معرفة المقصود بها وحدود دلالتها والتفرقة بين

أنواعها وحقيقة إعجازها ودراستها تاريخيًا، وكل ذلك مصدره العلم والاطلاع الذي يفضي إلى إثباتها بعد ذلك وجهاً للإعجاز أو نفيها عنه .

أما الإعجاز التأثيري فلا يحتاج إلى ذلك كله، فإن العامي يدركه كما يدركه العالم، وإن اختلفوا في مستوى الإدراك، وهذا يشهد له الواقع فكم من أمي لا يعرف مبادئ العلم من قراءة وكتابة تجده خاشعا يذرف دمعاته لآية هزّت مشاعره وحركت وجدانه، وربما لا يعرف معناها الدقيق، لكنه لا يملك هذا الشعور الذي تخشّاه، مهابة لكلام الله وجلاله، وتذكر الأخبار أن الأصمعي (ت: ٢١٦هـ) لقي أعرابيًا، فطلب من الأصمعي أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن الكريم فقرأ عليه سورة الذاريات حتى إذا بلغ : ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ – ٢٣] فتأثر الأعرابي وقال : من الذي أغضب الحليم حتى أقسم[1] ؟!

فتفاعله مع الآية يدل على تأثره، وقوله بعد سماع الآيات تدل على عمق مستوى التأثر الذي دفعه إلى إظهار العجب من قسم الله ﷻ على أنه رازق لعباده، وأن رزقهم في السماء، ثم أقسم على صدق ذلك وأنه حق كما أننا ننطق، وقد عجب الأصمعي من تأثر الأعرابي وكأن الآيات تطرق أذنه لأول مرة، وهذا الموقف على وجازته يؤكد أن العامي ليس محجوبا عن ملامسة الإعجاز التأثيري لقلبه، وأن التأثر ليس مشاعر محبوسة في الصدر بل ربما تخرج على القول والفعل .

ثالثاً: ثبوت تأثيره بالتجربة والواقع

لا ريب أن القرآن مؤثر على القلوب بجماله وجلاله، يشهد الواقع بذلك، فكم وقر في قلب فأسلم وأقلع عن عادات توارثها كابرا عن كابر، والقرآن يصدق هذا، فالجبل الصلد

(١) انظر: كتاب التوابين لابن قدامة، ١٦٣.

والصخر الأصم لو أنزل عليه القرآن لتأثر وتغير: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، فهذا صنيعه بالحجر فكيف بالبشر؟!

قال الشوكاني : "أي من شأنه وعظمته وجودة ألفاظه وقوة مبانيه وبلاغته واشتماله على المواعظ التي تلين القلوب أنه لو أنزل على جبل من الجبال الكائنة في الأرض لرأيته مع كونه في غاية القسوة وشدة الصلابة وضخامة الجرم خاشعا متصدعاً أي متشققا من خشية الله سبحانه حذرا من عقابه وخوفا من أن لا يؤدي ما يجب عليه من تعظيم كلام الله، وهذا تمثيل وتخييل يقتضي علو شأن القرآن وقوة تأثيره في القلوب"(١) .

وقد استفاض التاريخ بالدلائل والشواهد، فهذا جبير بن مطعم يوم كان على الشرك سمع آيات كاد قلبه أن يطير كما يقول عن نفسه، وأي تأثير أعظم من هذا، وهذه الآيات التي سمعها كانت من سورة الطور: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ(٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ(٣٦) أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥ - ٣٧] يقول جبير: "كاد قلبي أن يطير، وكان أول ما وقر الإيمان في قلبي"(٢).

وهذا من ذكر الوقائع التي يطمئن بها القلب، وإلا فإن اليقين مستقر على أثر القرآن بالنص الصريح والشاهد الحسي القائم في كل نفس، وهذا الأثر كما تبين يصل إلى مستويات عالية لا يصل إليها غيره من وسائل التأثير الأخرى، ولذا فإن من مقاصد الصلاة أن يستمع المسلم للقرآن في الصلوات الجهرية ليتأثر فيلين جلده ويخشع قلبه، فينقاد للقرآن ويكون له هدى ورشاد.

(١) فتح القدير للشوكاني، ٥/ ٢٤٦.
(٢) رواه البخاري برقم (٤٨٥٤).

رابعا: ربط بلاغة القرآن بعظمة منزله

يمتاز الإعجاز التأثيري عن بقية الأوجه الإعجازية الأخرى أنه يربط بلاغة القرآن الكريم بعظمة منزله، فإنك عندما تتأمل بلاغة التأثير تجدها شعورية عميقة باعثها الفطرة واليقين، أما الفطرة فإن النفوس مفطورة على أن الله عظيم ومن ثم فكلامه لا يكون إلا عظيما ومؤثراً، وأما اليقين فإن صنيع القرآن في القلوب برهان ناطق ويقين صادق متصل بالعظيم الذي أنزله، وكل تفسير يتوصل إليه الإنسان في تعليل تأثير القرآن الكريم هو في الحق تأكيد لعظمة الله ﷻ.

أما الإعجاز البلاغي فمنزعه الأكبر لغوي وأسلوبي يتأمل في مواطن التصوير ودقة التعبير، والإعجاز بالغيب السابق أو اللاحق مرده إلى التاريخ وتحقق الوعد طبق ما أخبر به القرآن الكريم، وأما الإعجاز بالصرفة فمرده إلى العقل والواقع، ولذا نشأ في بيئة المعتزلة الذين أرادوا تفسير عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن الكريم.

الفصل الثالث

تمكين الإعجاز التأثيري

من خلال المبحثين السابقين استبانت مكانة الإعجاز التأثيري عند النظر في أوجه الإعجاز مجتمعة وبيان ما فيها من استدراكات بثّها العلماء ونبهوا عليها، وكذلك تظهر مكانة الإعجاز التأثيري من خلال النظر في آيات القرآن نفسها التي أكّدت على هذا اللون من الإعجاز، إضافة إلى مقومات أخرى.

ومع هذه المكانة العالية لإعجاز التأثير إلا أنه بحاجة إلى عملية تمكين، ليأخذ مكانة اللائق به، فإن المسئولية العلمية تضطرنا إلى عملية التمكين التي تعيد الأمر إلى نصابه وتمنح الإعجاز التأثيري مكانته من خلال عدة وسائل، من أهمها :

أولاً: إبراز ميزاته

وهذه الميزات مر ذكرها في الفصل السابق، ومنها :

انسجام الإعجاز التأثيري مع الأوجه الأخرى، فهو يستوعبها ولا يصادمها، وكذلك عدم افتقاره للوازم العلمية والإيمانية حتى يلامس شغاف القلب فإن العامي يتأثر وغير المسلم يتأثر، ومما يدل على مكانته ثبوت أثره بالتجربة والواقع، كما يدل أيضا تحقيقه للغاية التي من أجلها أنزل القرآن الكريم، ومن ميزاته أن القول به هو في الحق تعظيم لمنزله تعالى، فالعظمة تنعكس على كل ماله به صلة، وأي عظمة كعظم الله ﷻ، ولذا قيل : فضل القرآن على غيره كفضل الله على خلقه[1].

ومن أبرز ميزات هذا اللون من الإعجاز جمعه بين الأثر الوجداني والسلوكي،

(١) انظر: فضائل القرآن لأبي بكر الفريابي، ١٢٣.

فالوجداني تأثير داخلي على المشاعر وتوجيه للأفكار وتغيير للاعتقادات، وأما السلوكي فهي نتيجة لهذه المشاعر تظهر في صورة إقدام وقرار وقول مؤثر، فبعد أن لامس النص القرآني أعماق نفسه تأثر إيمانه فازداد، وتأثرت جوارحه فاقشعر جلده ولانت قسوته ثم تبعه السلوك.

كما يمتاز الإعجاز التأثيري بوفرة أدلته وكثرة شواهده، فهي أشهر من أن تحصر، فالقرآن يؤكده، والتاريخ يبرهن له، فكم شهد من عمل خالد وقرار مؤثر نتج عن آية سمعها أو قرأها، وخير شاهد لهذا إسلام عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان جباراً في الجاهلية، متوغلا في الإشراك صادا عن دين الله، فما إن سمع شيئاً من سورة طه حتى أعلن إسلامه[١]، وأما النجاشي ملك الحبشة فإنه لما سمع القرآن لامس قلبه وانهمرت عيناه[٢]، فقد حصل المؤثر وهو القرآن ووجد الإصغاء وانتفت الموانع فحصل التأثير كما يقول ابن القيم[٣].

ثانياً : القيام بالتجارب العملية والواقعية

مما يمتاز به الإعجاز التأثيري ثبوت أثره بالتجربة والواقع، حتى صار من صميم ما يتفق عليه بين العقلاء، وإذا كان كذلك فلم لا تقام التجارب العملية والواقعية التي تبرهن مصداق ذلك ؟ لاسيما أن الأمور الحسية بليغة الأثر؛ لأنها في عالم الشهادة، ولا يتمارى أحد فيها.

ولابد أن تكون تجارب محكمة تقع تحت نظر الخبراء وأهل الاختصاص، وربما يكون المجال الطبي والعلمي والتجريبي الأوسع ميداناً لمثل هذا، فإن كثيرا من المرضى يجدون أثرا

(١) في ثبوتها خلاف، وقد ذكرها بعض أهل السير، انظر: الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للسهيلي ٣/ ١٦٧، وانظر: فتحُ البيان في مقاصد القرآن لصديق خان، ٨/ ٢٠٧.
(٢) روى الحديث بتمامه الإمام أحمد في مسنده برقم ٢٢٤٩٨ .
(٣) انظر: الفوائد، لابن قيم الجوزية، ٣.

للقرآن راحة وسكينة، وعليه فلا بد من إثبات ذلك بالأجهزة التي تقيس الضغط ونبضات القلب ونحوها، وقد سبق إلى ذلك كثير من الأطباء ولمسوا التأثير بأيديهم إلا أن ذلك لا يعفي من إبراز هذه التجارب وإعادتها حتى يبصرها العالم.

ثالثاً : فتح المجالات أمام الباحثين لاستنباط ملامح التأثير :

إذا أيقينا بقوة التأثير القرآني فإن بواعث التأثير ووسائله لا حصر لها لاسيما إن توافر عليها الباحثون وعُقدت لها الندوات العلمية والدورات التدريبية والمحاضرات التي من شأنها أن تسهم في فتح آفاق الإعجاز التأثيري واستخلاص وسائل لم يقف عليها الأوائل .

ولا ينحصر ذلك في ابتكار الجديد بل ينبغي أن يشمل جهد الباحثين على دراسة أدوات التأثير القرآني التي وقف عليها المتقدمون للنظر في جدواها وسر تأثيرها وإفادة الأدباء منها وتوسيع دلالتها ومفهومها.

رابعاً : توظيف طاقة التأثير القرآني في خطابنا

كتب التاريخ مليئة بالشواهد التي تؤكد إفادة النبي ﷺ من تأثير القرآن وحسن بيانه، فإذا ما أراد بيان حكم أو تقرير مسألة استند إلى القرآن الكريم ليكون أدعى للتأثير والقبول، وقد كان ذلك مع المسلمين وغيرهم، وهذا يؤكد من جهة عمق تأثير القرآن الكريم، ومن جهة أخرى ضرورة الإفادة منه في خطابنا.

والخطاب لا بد أن يستند إلى حجاج يجلي الغامض ثم يبرهن عليه، ومن أقوى الأدوات الحجاجية: الآيات القرآنية إذا أحسن اختيارها، وتلاءم مضمونها مع سياقها، وهذا التأثير يشمل كل اقتباس لنص رفيع جيد من شعر ونثر إلا أن تأثير القرآن لا يدانيه تأثير.

خامساً: توسيع نطاق الاقتباس الفني من القرآن الكريم

الاقتباس من القرآن الكريم على صورتين : الصورة الاستدلالية التي هي أشبه بصنع

علماء الشرع الذين يستدلون على الأحكام بالآيات، وبعض الأدباء يقتبس آية أو جزءاً منها في سياق ملائم لمضمونها، كقول الشاعر :

لقــد أنزلــت حاجتــي بـــــواد غـــير ذي زرع[1]

أما الاقتباس الفني فهو أثبت قدماً في سلم الجمال ؛ لأن الأديب يوظف الآية في سياقات جديدة بصورة مدهشة مؤثرة، لا تتأتى إلا بروية وتأني، وقد فصّل ابن الأثير في هذا النوع من الاقتباس وذكر تجربته، يقول : "فإني كنت آخذ سورة من السور وأتلوها، وكلما مر بي معنى أثبته في ورقة مفردة، حتى أنتهي إلى آخرها، ثم آخذ في حلّ تلك المعاني التي أثبتها واحداً بعد واحد، ولا أقنع بذلك حتى أعاود تلاوة تلك السورة وأفعل مثلما فعلته أولا، وكلما صقلتها التلاوة مرة بعد مرة ظهر لي في كل مرة من المعاني ما لم يظهر لي في المرة التي قبلها"[2].

وهذا يثبت أن الاقتباس الفني يمر بمراحل، فابن الأثير يقرأ السورة مترسلا ويثبت المعاني واحدًا واحدًا ثم يحلها لتتسع وتخرج عن سياقها الأصلي، ويعاود الكرة حتى تصقل المعاني ثم يبني عليها بعض رسائله، ومنها قوله : "وصل كتاب الحضرة السامية أحسن الله أثرها، وأعلى خطرها، وقضى من العلياء وطرها، وأظهر على يدها آيات المكارم وسورها، وأسجد لها كواكب السيارة وشمسها وقمرها"- .

والاقتباس الفني من قوله : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وقد جاءت رؤيا منامية ليوسف عليه السلام وتحققت بسجود إخوته له، فأخرجها ابن الأثير من سياقها المنامي إلى سياق دعائي لحضرة

(١) ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، ٣٩٤.
(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، ١٤٢٠هـ، ١/ ١٢٧.

الأمير أن يوالي الله عليه نعمه ويؤيده، يقول ابن الأثير: "وهذا أول معنى في السورة، وقد نقلته عن قصة المنام إلى الدعاء"(١).

ويلتقط ابن الأثير من سورة يوسف حادثة رؤيا الملك التي رأى فيها السنابل، يقول : "لقينا أياماً ضاحكات وليتها أيام عابسات فكانت كسبع سنبلات خضر وأخر يابسات"(٢) .

وهذه صورة أخرى للاقتباس الفني إذ جعل أحد أركان الصورة نصا من القرآن الكريم، لكنه أحسن توظيفه في سياق جديد وصورة طريفة .

وفي الاقتباس الفني يجب الحذر من أمرين : أولهما: الاقتباس في موضع الهزل رفعة لمقام القرآن الكريم، الآخر : المبالغة التي تخرج المخاطب عن طوق البشر، بإلحاق صفات الجلال الإلهية بأحد البشر(٣).

سادساً: المحافظة على خصوصية أدائه

يتميز القرآن الكريم بخصوصية الأداء، فقراءته ليست كقراءة غيره من كلام البشر، وقد قام علم التجويد ببيان الأحكام المتعلقة بتلاوته، قال الإمام أبو عمرو الداني : "تجويد القرآن إعطاء القارئ الحروف حقوقها وترتيبها مراتبها، ورد الحرف من حروف المعجم إلى مخرجه وأصله، وإلحاقه بنظيره وشكله، وإشباع لفظه وتمكين النطق بـه على صيغتـه وهيئته، من غير إسراف ولا تعسف، ولا إفراط ولا تكلف وليس بين التجويد وتركه إلا رياضة من تدبره بفكه"(٤) .

وهذا يبين خصوصية الأداء، التي تفيض على القارئ بالمعاني المؤثرة والتأملات

(١) نفس السابق.
(٢) السابق، ١/ ١٢٨.
(٣) انظر: الاقتباس: أنواعه وأحكامه د.عبدالمحسن العسكر، ٨٤-٨٥.
(٤) التحديد في الإتقان والتجويد لأبي عمرو الداني، ٧٠.

العميقة، وهذا من شأنه أن يكون باعثًا على التأثير، ولعل من أكثر ما يحجز عن التأثير الإخلال بنظام الأداء فتجد بعضهم يهذ القرآن هذّا، غير آبهٍ بالفيوضات الإلهية والمنح الربانية، وقد حذر ابن مسعود ﷺ من هذا بقوله : "لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذوه هذ الشعر، قفوا عند عجائبه، وحركوا به القلوب ولا يكون هم أحدكم آخر السورة "[١] .

ولذا ينبغي التأكيد على قراء القرآن بالتؤدة لاسيما في بواكير الأعمار، لأن من نشأ على عمل اعتاد عليه وألفه، كما أن إقامة المنافسات في أداء القرآن لها أثرها الحسن في هذا .

وقد تواترت هذه الخصوصية واستقلت بعلم يسمى (الأداء)[٢] وقد كان النبي ﷺ يخص القرآن الكريم بأداء مختلف، فيقرأه على مهل يمد صوته[٣]، ومن سمعه بهذا الأداء رق ووقَر القرآن في قلبه فخلع الشرك وانضوى تحت لواء الحق، وفي قصة إسلام جبير بن مطعم ﷺ خير شاهد، فقد سمع ثلاث آيات من النبي ﷺ كاد قلبه أن يطير كما يقول[٤]، بل طار حقا في سماء الإيمان .

(١) أخلاق أهل القرآن للآجري، ٣٨.
(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي من الباب الثامن والعشرين حتى الثالث والثلاثين، ١/ ٢٨٢-٣٤٠، وانظر البرهان للزركشي، ١/ ٤٤٩.
(٣) كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه عن قراءة النبي ﷺ: (كان يمد صوته مدا). رواه ابن ماجه بسند صحيح.
(٤) رواه البخاري برقم (٤٨٥٤).

الخاتمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لانبي بعده..

بعد دراسة الإعجاز التأثيري في القرآن الكريم خلصت إلى مايلي:

أولا: الإعجاز التأثيري أحد أبرز أوجه الإعجاز ويكتسب هذا القدر من خلال إشادة القرآن نفسه به.

ثانيا: يمتاز الإعجاز التأثيري عن غيره من ألوان الإعجاز الأخرى بظهوره وانسجامه مع أوجه الإعجاز الأخرى وتنويه العلماء به.

ثالثا: يمكن الإفادة من هذا اللون الإعجازي في تكوين الكلام وبنائه، لأنه يكسب العبارة قوة والفكرة تأثيرا.

رابعا: استطاعة المسلم وتمكنه من تحقيق الإعجاز التأثيري والإفادة منه بزيادة إيمانه وذلك باتباع الوسائل التي تمكنه من التأثر.

ويوصي الباحث بتوسيع الدراسات المقارنة بين أوجه الإعجاز لاسيما الإعجاز العلمي لاستخلاص المميزات لكل وجه، كما يوصي بتعميق البحث في الوسائل التأثيرية في الكلام التي وظفها القرآن الكريم والنظر في سر تأثيرها، كما يوصي الباحث بعقد الدراسات المشتركة بين علماء اللغة وعلماء الطب الحديث الذين يعملون على قياس نسب التأثر بواسطة الأجهزة الدقيقة، كما يوصي الباحث الخطباء والمعلمين في المدارس والجامعات بالقيام بدورهم في تمكين الإعجاز التأثري .

قائمة المصادر والمراجع

الإتقان في علوم القرآن لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

أخلاق أهل القرآن لأبي بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي (المتوفى: ٣٦٠هـ) حققه وخرج أحاديثه: الشيخ محمد عمرو عبد اللطيف بإشراف المكتب السلفي لتحقيق التراث الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣ م.

أسرار البلاغة، للإمام عبدالقاهر الجرجاني (المتوفى: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة.

الإعجاز البياني للقرآن الكريم ومسائل ابن الأزرق، د.عائشة بنت محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (المتوفى: ١٤١٩هـ) الناشر: دار المعارف الطبعة: الثالثة

إعجاز القرآن لأبي بكر الباقلاني محمد بن الطيب (المتوفى: ٤٠٣هـ) المحقق: السيد أحمد صقر الناشر: دار المعارف - مصر الطبعة: الخامسة، ١٩٩٧م.

الأعلام، للزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ) الناشر: دار العلم للملايين الطبعة: الخامسة عشر - أيار / مايو ٢٠٠٢م.

أمثال القرآن وصور من أدبه الرفيع للدكتور عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

البرهان للزركشي، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م

الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

بيان إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)] المؤلف: أبوسليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ) المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م .

التحديد في الإتقان والتجويد المؤلف: عثمان بن سعيد بن عثمان بن عمر أبو عمرو الداني (المتوفى: ٤٤٤هـ) المحقق: الدكتور غانم قدوري حمد الناشر: مكتبة دار الأنبار – بغداد/ ساعدت جامعة بغداد على طبعه الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٨م.

دلائل الإعجاز في علم المعاني المؤلف: أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ) المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.

الذخيرة في علم الكلام للشريف الرضي، تحقيق السيد أحمد الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي، طباعة جماعة المدرسين عام ١٤١١هـ.

الرسائل للجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة عام النشر: ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤م.

الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للسهيلي (المتوفى: ٥٨١هـ) المحقق: عمر عبد السلام السلامي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي) لمحمد بن إسحاق بن يسار المطلبي بالولاء، المدني (المتوفى: ١٥١هـ) تحقيق: سهيل زكار الناشر: دار الفكر - بيروت الطبعة: الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

السيرة النبوية لابن هشام، المحقق: طه عبدالرؤوف سعد الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة.

العقيدة النظامية للجويني، تحقيق ودراسة د. محمد الزبيدي، دار سبيل الرشاد، ودار النفائس الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

فتحُ البيان في مقاصد القرآن لصديق خان (المتوفى: ١٣٠٧هـ) عني بطبعهِ وقدّم له وراجعه: خادم العلم عَبد الله بن إبراهيم الأنصَاري الناشر: المَكتبة العصريَّة للطبَاعة والنّشْر، صَيدَا - بَيروت عام النشر: ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م.

فتح القدير للشوكاني (المتوفى: ١٢٥٠هـ) الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ.

فضائل القرآن لأبي بكر الفِرْيابِي (المتوفى: ٣٠١هـ) تحقيق وتخريج ودراسة: يوسف عثمان فضل الله جبريل الناشر: مكتبة الرشد، الرياض الطبعة: الأولى، ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٩م.

الفصل في الملل والأهواء والنحل للإمام ابن حزم، الناشر: مكتبة الخانجي.

الفوائد، لابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ) الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت الطبعة: الثانية، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

الاقتباس أنواعه وأحكامه، د. عبدالمحسن بن عبدالعزيز العسكر، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

القول بالصرفة في إعجاز القرآن، أ.د عبدالرحمن بن معاضة الشهري، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع بالرياض، الطبعة الأولى ١٤٣٦هـ.

كتاب التوابين لابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ) الناشر: دار ابن حزم الطبعة: الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

لسان العرب لابن منظور، الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى – ١٤٢٢هـ.

المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين المعروف بابن الأثير الكاتب (المتوفى: ٦٣٧هـ) المحقق: محمد محي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية للطباعة والنشر – بيروت عام النشر: ١٤٢٠هـ.

٢٩/ مداخل إعجاز القرآن للشيخ محمود شاكر (أبوفهر)، مطبعة المدني (القاهرة وجدة) ٢٠٠١م.

معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) لجلال الدين السيوطي، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

المغني في أبواب التوحيد والعدل للقاضي عبدالجبار، اعتنى به أ/ أمين الخولي، الشركة العربية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م مطبعة دار الكتب.

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري (المتوفى: ٣٢٤هـ) المحقق: نعيم زرزور الناشر: المكتبة العصرية الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

الموسوعة الميسرة في الإعجاز العلمي للأستاذ شحات صقر، دار الخلفاء الراشدين، ودار الفتح الإسلامي، بالإسكندرية- مصر (د. ط) (د. ت).

موقع صيد الفوائد http://www.saaid.net/.

النكت في إعجاز القرآن مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن [سلسلة: ذخائر العرب (١٦)] المؤلف: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (المتوفى: ٣٨٤هـ) المحقق: محمد خلف الله، د. محمد زغلول سلام الناشر: دار المعارف بمصر الطبعة: الثالثة، ١٩٧٦م .

نهاية الأرب في فنون الأدب المؤلف: أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣هـ) الناشر: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ .